حلبجة في الشعر العراقي المعاصر مأساة الذاكرة وذاكرة المأساة

ضياء عبد الرزاق أيوب قسم اللغة العربية، فاكلتي التربية، جامعة كويه، كويه، اقليم كردستان-عيراق.
البريد الإلكتروني : Dhiya Abduirazaq@koyauniversity.org

الملخص:

عني البحث بدراسة (حلبجة في الشعر العراقي المعاصر مأساة الذاكرة وذاكرة المأساة)، إذ شكّلت جريمة الابادة الجماعية في مدينة حلبجة بأبعادها المختلفة مرتكزات شعرية وتجليات فكرية في الشعر العراقي المعاصر، فجرح هذه المدينة لا يهدأ، والدمع عليها لا يرقأ، ومأساتها تجعلنا نرحل معها الى زمن لم يفارق حافظتنا، فصورها تصرخ في ذاكرة الانسانية لبشاعتها ووحشيتها.

اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في تمهيد وثلاثة مباحث، اختص التمهيد بعرض مدخل عن شعرية المدينة في الشعر العربي، وعني المبحث الأول بدراسة حلبجة ذاكرة الوجع، وكان من وكد المبحث الثاني دراسة حلبجة وتجسيد المعاناة، ووقف المبحث الثالث عند حلبجة الصمود والتحدي، واختص المبحث الرابع بدراسة حلبجة بين الواقع والحلم.

خلصت الدراسة الى حرص الشعراء العراقيين على تأسيس رؤية تحريضية تطمح الى محاربة القبح في العالم وتغيير وجهه واضاءة روحه بالحق والعدل والحرية، واستطاع الشعراء أن يلّونوا صورة حلبجة بألوان عذاباتها، بعد ما حلَّ بها من تدمير ومسخ لملامحها، كما خلصت الدراسة إلى نجاح الشعراء في تجسيد معاناة الشعب الكوردي، إذعكست قصائد الشعراء بعدًا مقاومًا كشفت عنه صور المعاناة التي عاشها هذا الشعب، ولعلَّ هذه المعاناة ولّدت عنده شعورا غائرا بالظلم، واحساسا عنيفا بالقهر، كما عملت على ترسيخ هويته، وبعث العنفوان والصمود والتحدي والمقاومة.

الكلمات المفتاحية: حلبجة ،الشعر، الذاكرة.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

الملخص:

يُعدُ موضوع المدينة طرحًا معاصرًا في الشعر العربي الحديث، فقد أدرك الشاعر العراقي المعاصر أنَّ الزمن الذي يعيشه، هو زمن عنف وقهر، فجاءت أشعاره لتعبِّر عن صرخة تنطلق من أعماق الألم والتمزق الإنساني، مما خلق جوًّا حادًا من التوتر، فالكآبة تعمَّقت جذورها في نفسيته، وتحوَّلت إلى فلسفة تشاؤمية فهو لا يرى ولا يتكلم الا عن الحرب و الموت والخراب والدمار، ولعل وعي الشاعر بمعطيات الواقع والتزامه بالتعبير عن قضايا وطنه وأمته يكشف عن دفقات شعرية ذات بعد ايحائي، تتجاوز التعبير عن البعد الفردي إلى التعبير عن البعد الإنساني.

ظهر اهتمام الشعراء العرب بالمدينة قبيل منتصف القرن الماضي ، فكانت موضوعا من الموضوعات التي دار عليها شعرهم ، وربما كان هذا الاهتمام صدى لقصيدة الأرض الخراب للشاعر ت.س. إليوت تلك التي انتقد فيها المدينة وقيمها وعذابات الناس فيها ، وكان من أولى الدراسات النقدية التي تنبهت إلى تناول هذه الظاهرة في الشعر العربي الدراسة التي وردت في كتاب عز الدين إسماعيل"الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية" عام 1966، وكانت تحت عنوان: (الشاعر والمدينة)، ثم تلاه إحسان عباس عام 1978 في كتابه: (اتجاهات الشعر العربي المعاصر)، إذ عقد فيه فصلاً بعنوان: الموقف من المدينة. وتوالت الدراسات بعد ذلك ، وكان من أبرزها ما أنجزه الدكتور عبد الله رضوان في كتابه (المدينة في الشعر العربي الحديث) والدكتور محمد عبد الله القواسمة في كتابه (صورة المدينة في الشعر العربي الحديث) والدكتور زهير عبيدات في كتابه (صورة المدينة في الشعر العربي).

للمدن مكانة كبىرة في قلوب أهلىها، لذلك تتوجَّع هذه القلوب الحىَّة أمام كلّ وجع ىصىب المدن، ولا شكَّ أن لبعض المدن خصوصىة حضارىة وتارىخىة وجمالىَّة على بعض، ومن هذه المدن(حلبجة)، هذه المدىنة التي آثرنا الحدىث عنها على الرَّغم من حضور مدن أخرى في الشعر العربي المعاصر، إلا أنَّ حدىثهم عن حلبجة جاء طافحاً بالحزن؛ فاجتىاحها هو في حقىقة الأمر اجتىاح لتارىخ سامق مجىِ، والنار التي أضرمتها الحرب فىها ىصل سعىرها إلى كلّ العراق.

لقد شكَّلت جريمة الابادة الجماعية في مدينة حلبجة بأبعادها المختلفة مرتكزات شعرية وتجليات فكرية في الشعر العربي المعاصر، فجرح هذه المدينة لا يهدأ، والدمع عليها لا يرقأ، ومأساتها تجعلنا نرحل معها الى زمن لم يفارق حافظتنا، فصورها تصرخ في ذاكرة الانسانية لبشاعتها ووحشيتها.

وتبقى هذه الفاجعة الهاجس الذي يقضُ ضمائر الشعراء كردا وعربا، ويهزُ وجدانهم ويحرِّك مشاعرهم، لما تركته من آلام في نفوس لا حصر لها، ودموع في عيون لا عدَّ لها، لذلك حركت أقلام عدد من الشعراء، فقد قدَّمت لهم هذه الفاجعة مادة واقعية غنية وصورًا مؤلمة عكست شعورًا غائرًا بالظلم واحساسًا عنيفًا بالقهر.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في تمهيد وأربعة مباحث، اختص التمهيد بعرض مدخل عن شعرية المدينة في الشعر العربي، وعني المبحث الأول بدراسة حلبجة ذاكرة الوجع، وكان من وكد المبحث الثاني دراسة حلبجة وتجسيد المعاناة، ووقف المبحث الثالث عند حلبجة الصمود والتحدي، واختص المبحث الرابع بدراسة حلبجة بين الواقع والحلم.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

المهاد النظري/ مدخل الى شعرية المدينة والمأساة في الشعر العربي :

أدرك الشاعر العربي القديم بالفطرة أهمية المكان في حياته، إذ ربطه بمصير الحياة والموت أو الجدب والخصب، وما الوقوف على الأطلال – كماأثبتت ذلك كثير من الدراسات التي تناولت الأطلال في الشعر القديم-إلا دليل على وعي الشاعر بأن الاستقرار في مكان واحد، يضمن له الأمان والطمأنينة والراحة النفسية "فالوقوف على الأطلال يتحول من الوقوف على غريزة الحياة التي كان يمثلها المكان في يوم من الأيام، في وجه غريزة الموت التي تمثلها الجذب والقحط الطبيعي وغياب العمران وكذا الكبت الجنسي ، على اعتبار الجنس رمز للحياة وازدهار عمرانها، فشعراء الجاهلية لم يبكوا الأحبة بقدر مابكوا خلو الديار من أهلها وكأن نفس الشاعر تتوق وتتطلع إلى الاستقرار الحضاري" (عقاق، 2001، 28).

إنَّ رؤية الشاعر الجاهلي للمكان هي رؤية نابعة من الاحتياجات النفسية التي كانت تنقصه والتي بدونها لا يمكن له أن يشعر بلذة الحياة وبمعنى وجوده واختلافه عن باقي المخلوقات. لذا فالوقوف على الأطلال ظاهرة سادت، في الشعر الجاهلي، إلا أنها لم ترق إلى صورة المدينة المعروفة بمقوماتها الحضارية الراقية"(حجازي، 2002, 198).

إنَّ التراث الإنساني قد لمس من قريب أو بعيد معنى المدينة والحضارة بما يرمزان إليه من تغيرات ترغم النازح على التخلي عن شكله القديم، وعلى أن يلبس للبيئة الجديدة لبوسه ومع ذلك" نؤكد هنا أن المدينة –كموضوع(كذا)–فكرة شديدة المعاصرة ترتبط بالقرن العشرين ومنجزاته، والإشارات السابقة لا تعدو أن تكون مواقف متناثرة لم تخلق من المدينة موضوعا شائع، حيث ينطلق الشعر المعاصر من مفهوم حضاري في تصور جديد للكون والمجتمع والإنسان، بفعل من الثورة العالمية في مستوياتها الاجتماعية والفكرية والتكنولوجية" (أبو غالي، 1995, 4).

غير أنَّ صورة المدينة اتخذت أبعادا جديدة لدى الشاعر العربي المعاصر، نتجت عن التدرج في عمق التجربة وتجذرها، تبعا لتعمق الأسباب المؤدية البها، إذ " تحضر صورة المدينة العربية في الشعر العربي، من عهد الإحياء إلى اليوم، كأنّها متاه لصراع الذات مع نفسها ومع الآخر، معاناة لخلل بنيوي صميمي في الواقع العربي، لا يستقيم نموذجه الحضاري في محاولة تأصيل الحاضر المستلب، باسترجاع الماضي المنتهي، واستحضار المستقبل الهارب. ومن هنا تبدو المدينة مفهوما مضطربا، يحمل التعارض إلى حدّ التناقض، من الرفض إلى القبول، لم تكن النهايات غير دموع الخلاص المرتقب، أو أحزان الحلم المستحيل" (رماني ، 1999, 280.).

وتوخيا للدقة و المنهجية ، فإنه يتوجب علينا في البداية أن نقف عند مفهوم شعر المدينة ، ففي تعريفه لشعر المدينة، يذكر إبراهيم رماني– فيما يرى (ج.ه.جونسون (j.h.johnson) أنّه ذلك "الشّعر الذي يصف مدينة واقعية وصفا مباشرا ، أو يصف البشر الذين تتأثر حياتهم بتجربتهم في تلك المدينة تأثرا واضحا " (رماني ، 1999, 280).

إنَّ فكرة شعرية المدينة هي امتداد لشعرية المكان، أي المدينة / المكان كما هي في الواقع ، وكذلك المدينة / المكان كما يشكلها الشاعر، ويتخذها مرآة تعكس العالم وموقفا من حركة التاريخ، غير أنَّ امتداد فكرة شعرية المدينة، مع فكرة شعرية المكان لا ينبغي له أن يجعلنا نغفل حقيقة أن موضوع المدينة في الشعر فكرة شديدة المعاصرة ، ترتبط بالقرن العشرين و منجزاته، فالشعر المعاصر ينطلق من مفهوم حضاري في تصور جديد للكون و المجتمع و الإنسان ، بفعل من الثورة العالمية في مستوياتها الاجتماعية و الفكرية و التكنولوجية (أبو غالي، 1995, 4).

إنَّ بكاء المدن " تعبير حي عن حسّ شعري مأساوي بتاريخ الفجيعة الحضارية عبر مشاهد الفتنة والموت والحصار والخراب والضياع والاحتلال، التي عرفتها الحضارة العربية، واختزلتها القصائد في دموع وآهات وذكريات وأحلام وإيقاع حزين" (رماني ، 1999, 280).

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

لقد امتزج ذكر المدينة في الشعر العربي المعاصر بما يعانيه الشاعر من مظاهر الظلم والتعسف والاستدمار والفقد والضياع، كما ارتبط ذكرها عنده بالدعوة إلى هجرها والتخلص من كل القيود التي تحيطه منها، ولأن الشاعر المعاصر وجد فيها الاغتراب والغربة والضياع وأضحى حبها عنده مرفوضا، فقد كان لزاما عليه أن يتحدى ويسعى لتحقيق الصبح الجميل في القرية، التي تزداد حاجته إليها كلما تعمق إحساسه بالضياع، ولا يجد العزاء إلا في ذكرها.

أما مصطلح المأساة فهو في أصله: قصيدة مسرحية تعرض حدثا مهما كاملا مقْتبسًا من التأريخ أو الأسطورة، ويشترك في أحداثه شخصيات بارزة، لتثير في نفس المشاهد الرعب والشفقة، بعرضها الأهواء البشرية المتصارعة مع قدَرها. يعود تأريخ هذا المصطلح إلى الإغريق، فهم أوّل من عُني به، وكانوا يمزجون الأحداث المؤثرة والمأسوية بعناصر غنائية، تبتعث الرعب بما تصوره من أحداث محزنة يُزجيها القدر ولا يد للإنسان فيها، ويشيع في هذه المسرحيات الحزن الناتج عن تصادم العواطف وتمزقها. أما مجازا فيعبر عن المأساة عن كل صراع نفسي عنيف أو كل أحداث دامية، وجدير بالذكر إنَّ في المأساة شيئا أكثر من الحزن، لما فيها من تمثيل لأدوار متعددة، ينتهي أكثرها بالموت أو ما يُشبه الموت من النهايات الفاجعة(عبد النور، 1984, 232)، والمأساة في هذا البحث تنسحب إلى كلّ معاناة وألم وقهر وظلم وقع على مدينة حلبجة.

المبحث الأول/ حلبجة ذاكرة الوجع:

والمقصود بالذاكرة "ما كتبه الشعراء لتخليد مآثر المدن ورثاء أطلالها، واسترجاع ماضيها، أو عبروا عنه في غربتهم عن الوطن، وحنينهم اليه، هو الشعر الذي حاول أنْ يبقى وفيا للمدينة في تأريخها العام والخاص " (رماني ، 1999, 12) .

ولا أظننا نُجانب الصواب، ومن خلال مؤانسة الشعر العربي قديمه وحديثه، إذا قلنا إنَّ الشِّعر العربي حُبل من ماء المعاناة، خاصة إذا ما تقرينا آثار نشأته الأولى وبداية رحلته من الوجود، فإذا صدقت رواية الأصمعي والتي يُسلّم بها غالبية الرواة، أو بالأحرى لا يملكون عكس ما يدحضها، فإنَّ القصيدة العربية بصورتها التي رسا عليها الشعر العمودي بعد ذلك ولدت أول مرة بين يدي المهلل بن ربيعة من رحم المأساة في تلك الكلمة التي قام بها على قبر أخيه كليب عشية مقتله وبلغت ثلاثين بيتا، وبها أرق الشعر وهلهله (الرافعي، 1974, 27/3) ، ومطلعها:

أهاجَ قَذَاءَ عَيْنِي الإِدّكَارُ هدْواً فالدُّمُوع لَهَا انْحِدَارْ

وَصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلاً عَلَيْنَا كأنَّ الليلَ ليسَ لهُ نهارْ

وبتُ أُراقِبُ الجَوزاءَ حتّى تقاربَ منْ أوائِلِها انْحِدارْ

أُصرِّف مُقلتي في إثرِ قومٍ تباينتِ البلادُ بهمْ فغَارُوا(ابن أبي ربيعة، د.ت, 31)

ولم يكن استحضار ذاكرة المدينة تخصيصا في الشعر العربي القديم منحصرا في مقامات الغربة والحنين وحسب، ولكن كثيرا ما انتصبت المدينة هرما في مدونة الفجائع عند الشاعر العربي، فقد سجل بحسٍ مأساوي فائق هزائم مدينته وانكساراتها وما لحق بها من كوارث وخراب، وإذا كانت عظمة الرزية بضياع الأندلس وما صاحبها من فيض ابداعي وزخم فني راق، قد طغت على غيرها من الفيوض الإبداعية، فإنَّ هذا الطغيان لا ينسينا في هذا السياق مانظمه الشعراء العرب من قصائد في بكاء مدينة حلبجة.

لقد احتفى الشاعر العراقي بمدينة حلبجة، وواكب نكبتها، فمن الذواكر الحزينة التي فاضت فجيعة وإحساسا بالمأساة في الشعر العراقي قصيدة (هذي حلبجة) للشاعر عبدالستار نور علي :

هذي حلبجةُ في المدى أخبارُها لتثيرَ في همم ِ النفوس ِ شرارها

وتعيدُ قصةَ ذبحها وحريقها صوراً من الحقدِ اللئيم ِ شِفارُها

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

تلك الضحايا تستثيرُ نداءها عاماً فعاماً كي تَقربَ ثارَها
فهي الجراحُ النازفاتُ روافدٌ للناهضاتِ الحاشداتِ قرارَها
إنَ المواجعَ لم تزلْ تسري على دمنا شموعاً نقتفي أنوارَها
هذي حلبجةُ جرحُها لا ينتهي أبدَ الدهورِ ولا يذوبُ أوارُها
ستظلُ ملحمة الدماءِ تسيلُ في عرقِ التراب سقايةً أمطارُها
وتظلُ تنبضُ في القلوبِ روايةً تحكي لجيلٍ بعدَ جيلٍ نارَها
هذي حلبجةُ لم تزلْ مقرونةً بالشمسِ حتى لو نويتَ دمارَها
فالشمسُ إنْ ضمتْ سحابُ وجهَها ستظلُ شمساً يستحيلُ ستارُها(علي، 2019 انترنيت)

إنَّ فعل القراءة المتأنية في أعماق هذه القصيدة، يجعلنا نؤمن بتعلق الذات الشاعرة بعشق المدينة، حيث تصبح حلبجة دالا بانيا من دوال بناء الخطاب الشعري، وتساهم في تكثيف شعريته المفتوحة على ألق السؤال في علاقة الجسد بالمكان، علاقة تشي بها كثير من الصياغات، ولأجل ذلك فقد ابتدأ هذا باصرار الشاعر على بقاء مدينة حلبجة محفورا في الذاكرة الجمعية وكانت الثىمةُ المهىمنةُ فىه، ىنتهي بما ابتدأ به، فهذه المدينة ستظل كالشمس التي لا يمكن حجبها، إذ تمتد الذاكرة الشعريّة إلى فضاءات اللغة والروح، متجاوزة حدود الزمن،" وما العملية الشعريّة على هذا الأساس سوى فعل تنصيص للذاكرة، واستجلاب كنوزها الدفينة؛ لتحقق تمظهراتها المتعددة والمتنوعة والشاملة في القصيدة الأنوية، التي تجسّد، وتفعّل، وتمظهر كلّ هذا التعدد والتنوع والشمول، بلغة غنائية تعيد خلق الأشياء، وهي تتجه في إشاراتها، وعلاماتها، ورموزها إلى أفق الرؤيا " (عبيد، 2006, 23).

إنَّ انفعال الشاعر انعكاس واضح لمعاناة مدينة حلبجة، هذا الجرح النازف والهم المتجدد في الذاكرة الجمعية، والتي أحالت فكره إلى جذوة لهب، تستدعي ما تختزنه الذاكرة من صور مؤلمة. ومما يلفت النظر في النص السابق تكرار الشاعر لعبارة (هذي حلبجة)، وهو تكرار عكس ذروة الإعلان المتحدّي للبقاء والصمود، كما شكّل إيقاعا خاصًا يتماشى واصرار الشاعر على بقاء هذه المدينة المذبوحة بسيوف الحقد وسكاكينه ، هذا التكرار الممتد على مساحة النص، يعطي القارئ فسحة ليفتح مخيلته على احتمالات المعاني المتعددة، إذ تكرار لفظة معينة وبهندسة معينة، تجعلنا نثير الأسئلة، وهذا النوع من التكرار يسميه محمد بنيس بتكرار الترابط(بنس, 1990, 150)، والذي يؤدي في النص وظيفة دلالية فضلا عن وظيفته الإيقاعية.

وسعى الشعراء مرَّة أخرى إلى ترسيخ فجىعة حلبجة في الذاكرة الجمعية من خلال المقارنة بين ماضي هذه المدينة وحاضرها، إذ ىظهر الألمُ جلىًاً، حىن نُقارن بىن حلبجة قبل القصف وبعده، حىنما كانت موئلاً للجمال، وبىن صورتِها الحاضرة إذ صارَتْ خرابا ودمار، يقول الشاعر فائز العراقي (ناهض حسن) في قصيدته (صورتان لحلبجة) :

تستيقظ حلبجه في الصباح
تغتسل في مياه الينابيع
وتفرد جدائل الشمس
شرائط ذهبية لصباياها...وا... هٍ
يباغتها الوقت الرمادي
تهرب مذعورة لمغاور الجنون
تعد ضحاياها واحداً واحدا

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

وتنشج خائرة في وهاد الصمت

حلبجة ... حلبجة

مدينة من أشلاء ودخان...تنزف أصابع أطفالها

اساور للأفق البعيد (الفياض، ملف فائز العراقي ، 2004, 86)

تشكل حلبجة المكون الرئيس في توجه متخيل القصيدة، وفي بناء الخطاب الشعري، وقد تطلبت من الشاعر شحذ ذاكراته البصرية، والإنصات الدقيق لما قبل الجريمة وبعدها، فهذا المقطع ىسعى إلى الكشف عن صورة أخرى من صور الفجىعة التي عاشتها حلبجة، ويعمّق الجرح، إذ يشتغل على استحضار صورة حلبجة بىن الأمس واليوم، فىصوّر لنا حلبجة بكامل بهائها، مدىنة الجبال والثلج، فتبدو مدينة من السّحر والجمال، لكنّ أيادي الشر أحالتها إلى مدينة أشلاء ودخان، ولعل تركيز الشاعر على مشاهد الدمار، يزيد من عِظَم الفجىعة، وىجعل من النص بُكائىّة مُتجدّدة.

وقد يرتفع الشاعر بالمدينة ورموزها ويحفرها في ذاكرة المتلقي، نحو قول الشاعر العراقي شينوار ابراهيم:

سحابٌ ..عواصفُ

رعدٌ ..مطرٌ أسودُ

يمسحُ لحْنَ أغنيةٍ منسيةٍ. .

فالشاعر يلامس الجوانب المختلفة من الموضوع الذي يطرحه وفق تجليات الحلم المرسوم في ذاكرته، ويثبت هذه التجليات وفق أحداث الإستعارة المكانية، " وتحدث هذه الإستعارة من خلال احداث انزياح في ترتيب المكان بحسب رؤاه بانسابية شفافة مع الاحتفاظ بالعمق لكل الموجودات التي ترمز لهذا المكان، بحيث ندرك أننا أمام شاعر يمتلك القدرة على التنقل برؤاه وفق ذاكرة الأشياء، في فكره معبرا عنها بلغة بسيطة عميقة بالمعنى الذي يريده الشاعر، حيث أنّ انسيابية اللغة تخاطب شفافية الفكر،" (المالكي، 2013 55).

بيْنَ الصّفحَاتِ ..سقوفُ أكواخٍ

ضائعةٍ..لَمْ تكتبْ بعدُ..

ريحٌ صفراء تسرقُ نظراتِ الشمسِ

تأخذُ لونَ الأرْضِ

تكْتمُ صرخاتِ طفلٍ. .

تحرقُ ضحكاتِ وردةٍ حمراءَ

لم تفقْ . . بعدُ

صمتَ أبديّ في السابعَ عشرَ مِنْ آذارَ!!

ولا يخفى احتفاء النص بعدة أطياف لونية ذات مضامين ودلالات شعرية صورية، أضفت عليه مناخا باذخ الرؤى والدلالات، يحرك فينا الإحساس بالمعنى، لكي نعي هول تلك الفاجعة التي حلت بهذه المدينة المنكوبة، إذ يتنامى المشهد الشعري للشاعر من خلال هذا النص بتدرّج لوني هو من الأهمية بمكان، فهو شاعر يمسك ريشة فنان يرسم لوحة انطبعت بذهنيته المكلومة بشرخ كبير اسمه حلبجة، أورد الشاعر ألوان الحقد والموت والدمار وهي الأصفر والأحمر والأسود، وأبدع في بناء النص اللوني بحرفية بالغة مع احتفاء الشاعر بهندسة النص الجمالية بضربات لونية أصابت المتلقي بالدهشة، ووفر انسجاما

كليا للمتلقي والصورة الشعرية (عقيل، 2015، انترنيت)

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

مدينة الحزن سنون مضت

دمعة حزن لم تجف على أرواح

اختنقت في أحشاء ربيع اصفر

مطر قاتل انهار من الدماء

صنعتها عواصف الحقد

لرجل عشق القتل بناره

نجد الشاعر يتبع منحنى مختلفاً خاصا به وبتجربته الشعرية، ليرصد لنا الواقع بدقة وتفصيلية يتخللها ايماءات وايحاءات تشير بوضوح الى قضية شعب ومعاناة اجيال جراء استبداد وظلم لامنتهي، وقهر واضطهاد خلف وراءه دمعا لم لم يجف بعد وانهراً من الدم الذي، حداداً على تلك الارواح التي احرقت اجسادها بغير ذنب. كان وصف الشاعر للحالة بليغاً واعياً ودقيقاً، لكونه رصد ضمن جغرافية الزمن والحدث بعض الايحاءات التي من خلالها يمكننا رصد المكانية ايضاً (احشاء ربيع اصفر، مطر قاتل، دماء، لرجل ، القتل..)، كل هذه الايحاءات ترمز بدقة ووضوح الى المأساة التي صدعت ضمير الانسانية وقتها، ووصمت جبينها بالعار الازلي الذي لايمكن ان يغسله صلب مئات الرسل والانبياء، فالحقد الذي حمله رجل السلطة ونقله بدوره الى اذنابه خلق ملامح هذه اللوحة ربيع اصفر ومطر قاتل وانهار من الدماء، هذه الوصفية القاتمة ليست مجرد كلمات تصف واقعة انما هي ترسبات تنامت ضمن جغرافية لم تزل تعاني مآسي امثال لك الرجل العاشق للقتل الجماعي، ولقد استطاع شاعرنا من التقاط الصورة المناسبة التي تظهر لنا ماهية الحدث الذي اعتمده الشاعر مادة شعرية، وماهية الواقع الذي ترتب على الحدث الشعري نفسه. إنَّ الحرق كان لأجساد الكورد، إذن هو حرق عنصري، نتج عنه قتل الشمس، وهنا رمزية تتخطى الصورة المتاحة لكونها تضعنا أمام مخيلة تعددية، فقتل الشمس ليس فعلي، إنّما هو مجازي يعني قتل الأمل، قتل الحياة، قتل النور، لذا نجد الشاعر يتبع قتل الشمس ويربطه بعيون امرأة، وهذه المرأة تحمل طفلا، إذن تحمل حياة وهنا يظهر مدى روعة الشاعر في وصف الحالة، حيث يتبع القتل الذي يعني انهاء حياة... بولادة حياة...وهذه الوادة لا تأتي إلا بالانتماء إلى الأرض التي تعيش في أوجاعها وأفراحها معا حيث نوروز التي توحي بالبداية الجديدة واليوم الجديد (تمر ، 2015/8/4، انترنيت):

احرق أجساد الكورد

قتل الشمس في عيون امرأة تحمل طفلا

تترقب قدوم نوروز

في محراب آذار. بين أزقة

حلبجة مدينة الحزن في سماء كردستان

غيوم سوداء... لهيب

ويستمر الشاعر وفق هذه الذائقة، باستفزاز الذاكرة ليبث فيها هذا العالم المرعب من الدمار، فهو يستدرج فكر المتلقي دون أنْ يخرجه من الكابوس، فيضيف المعنى التأويلي لكل الدلالات الإستعارية وبنزعة صوفية إلى حيث المكان الذي يرتقي بالمكنون الرمزي إلى ما فوق الحدث المكاني، حيث نشعر أننا أمام مكان حدث فيه ما هو مأساوي بلغة إيحائية، فالشاعرعن ذائق الحلم برموزه البسيطة التي تشع على كل ما هو خراب في ذلك المكان (حلبجة)، ولا يجرح ذاكرة المتلقي، بل يعمق المعنى الكبير لهذه المأساة، التي أنتجت معاناة كبيرة لشعب آمن:

حداد طويل...انهار الوجع

لم تجرف معها

حزني على خد

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

نرجسة... ماتت

في حضن جنين في بطن أمه

يحلم بقدوم نوروز(ابراهيم، 2015، انترنيت)

كانت الذاكرة هي حصن الشاعر أحمد الحمد المندلاوي في قصيدته(حلبجة ولوحات الأنين) في مواجهة لحظة الصراع تلك، فقد رسم في هذه القصيدة صورتين متناقضتين لمدينة حلبجة، إذ يقول في اللوحة الثالثة(إعدام مدينة في بلادي):

مدينةٌ كانت هناكْ ،تعانقَ السَّحابْ

طاهِرة الثّيابْ..هائمةٌ في حسنها،

تغازلُ الأفلاكْ وتكرهُ الضَّبابْ

وتنسجُ من حُلمِها الشَّفّافْ

نسائماً زاهيةً للزَّهرِ ، والصَّفصافْ

لكنَّ مَنْ لـم يستطعْ قراءةَ الجَمالْ

داهمَهمْ عندَ الصَّباحْ...ليقتلَ العبيرَ والقدّاحْ

هاجَمَهمْ جيشٌ من الذّئابْ..بالنّابِ ؛ والسّمومْ

كالهَمجِ الرُّعاع ..كالدُّبابْ

وأحرقُوا الدِّيارَ، والبقاع

لأنّها تعانقُ النُّجومْ وتكرهُ الطّغيانْ..صارخةً : الظلمُ لنْ يدومْ

فقطّعوا أوصالَها ليدفنُوا آمالَها ..أطفالَها

تحتَ بقايا الدُّورِ، في المدينةْ

في الغرفِ الحزينةْ (المندلاوي، 2014 انترنيت)

إنَّ الشاعر أحمد المندلاوي لا يدخل إلى الموضوع مباشرة، بل يهيئ المتلقي للحدث القادم ليبث في روحه الصدمة الكبيرة التي حدثت في حلبجة كي يصعد من هول الحدث، أي أن الشاعر يخترق روح المتلقي كي يحدث التداخل الكامل مما يريد أن يوصله إليه، ولذلك فقد أفاض الشاعر في خلع صورة المرأة الحسناء على المدينة، ومدينة حلبجة في الصورة الاولى عظيمة شامخة تعانق السحاب، وهي عفيفة طاهرة الثياب، معجبة بجمالها، وهي لشدة حسنها أجمل وأبهى من الأفلاك ، لقد سعى الشاعر في لحظاتِ الحزن والضيق الشديدين، وحين يغمر الإنسان القهر والكبت، سعى الى استحضار صور ومشاهدَ مغايرة لهذا الواقع المؤلم الذي يراه والذي يتجسَّد أمامه من خلال الخراب والدمار الذي حلَّ بمدينة حلبجة، ليجعل من هذه اللحظات نافذة يطلُّ منها إلى الحياة، ومتنفَّسا يستنشق منه عبق الأمل حين يجيء اليأس والحزن، والذي تسرَّب من المشاهد التي رسمتها الصورة الثانية في هذه القصيدة، وهي صورة مرعبة لهذه المدينة، تطفح بالقتل وتقطيع الأجساد ودفن الأحياء.

وبهذه الخاتمة المأساوية التي تنتهي إليها القصيدة داخل هذا الفضاء الشعري السلبي والذاهب إلى حاضنة الموت على حساب حاضنة الحياة، تتحول قصيدة (إعدام مدينة في بلادي) كلها إلى موت منتشر في كل مساحات الفعل الإنساني وحساسيته، وظلام حالك لا يعرف طريقه إلى النور.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

المبحث الثاني/حلبجة وتجسيد المعاناة:

يتشكل هذا البعد في جوانب مختلفة، تنطلق من معاناة القتل الذي يحياه الكورد، مما جعل الشاعر يرتد إلى عالمه الداخلي المفعم بمشاعر التمزق والحزن، بعدما عانى من آلام التنكيل بالأهل، فكان شعره صوتاً متفجعاً، ولذلك فإنَّ صوت الموت وصورة الخراب، كانا حاضرين دائما بوفاء في تأليف المشهد التراجيدي عند الشعراء الذين صوروا مأساة مدينة حلبجة، فهذه المأساة استوقفت الشاعر العربي عنوة وسقته مرارة الإحساس ما يؤلم نفسه، ويثري رصيده المتضخم من المحن والإحباطات، يرتسم الموت في هذه القصيدة باعثا للحس المأساوي، ويبدو النص رداً شاملاً على مشروع الدمار المتمثل بما حدث بعد القصف، وقد أسقطت الذات الشاعرة مشاعر الخوف والهلع على هذه المدينة، كما هو الحال في قصيدة (مدينة خالية) للشاعر محمود البريكان، إذ يقول:

في بعض أسفاري
دخلتها مدينة صامتة
خالية من أثر الأحياء
أبوابها مغلقة ..ساحاتها تلعب فيها الريح
لكنَّ أضواءَ شبابيكها
تسطع طول الليل
من يضغط الازرار؟
رأيت في الحدائق الأزهار مائلة الأعناق
وملعب الأطفال محطما
قرعت أبوابا وناديت
ترى ماتوا جميعا؟ (البريكان, 1993, 1990)

وقف البريكان على المدينة المنكوبة التي رزحت تحت ثقل آلامها ومعاناتها وأحزانها، على نحو مركب وباسلوب رؤيوي ملؤه التغييب والتماهي، وقد رسم الشاعر ملابسات هذا الحدث وتجسَّده المكاني في إطار مدينة لا قرية ولا بلد، بعنوان (مدينة خالية)، وهذا التجسيد المكاني أقرب بل وينطبق على واقع حلبجة، فلو كان العنوان بغير المدينة لما استطاع المتلقي المقاربة بينهما بسهولة، وإيجاد خيوط الوحدة بين مدينة الحدث ومدينة النص، إذ انَّ هذا العنوان يُجسّد مأساة حلبجة على نحو شعري ودون عنوان صريح أو تنويه ببيان المرجعية، وهو عنوان مرن وملتحم بالمتن ومتجذر فيه، بمعنى ان العنوان ينتمي بقوة إلى النص انتماء عضويا ودلاليا، ثم انه عنوان يؤسس لدلالة القصيدة كلها، من معاني (الخلو والخواء والإنعدام والفناء)، التي يريد أن يرسمها النص بأسلوب مركب في البناء، لذلك يبقى مفهوم الخلو بؤرة في الترسيمات وجميع مفاصل النص إلى نهاية القصيدة في صورة خلو الصوت وخلو الحركة وخلو الفعل وخلو العنصر البشري وخلو الجمال وخلو الفهم على التوالي، وبذلك يكتسب هذا العنوان صفة البؤرة، بؤرة الرؤية المركزية التي تطرحها القصيدة وتتمحور عليها في الوقت نفسه، وهو يقوم بوظيفة التمهيد للدخول في النص، ويوحي هذا العنوان بمفارقة تنداح إلى طبيعة المفردتين اللتين جمعتا فيه، ذلك أنَّ مفهوم المدينة قائم على حضور بشري مكثف وهو نقيض وصفها بأنها مدينة خالية.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

ويصوِّر الشاعر خلو المدينة خلوا تاماً، ولأسباب مجهولة، وبتساؤلات محيِّرة، لكن الاستنتاج الأخير يبوح بأنَ السبب في ذلك هو الموت الجماعي، إذ التصور الأخير لمشاهد النص ينمُّ عن حدوث قتل جماعي وإبادة شاملة، ولعل هذا النص من بين أكثر الفوارق الأسلوبية تميزا عن النصوص الأخرى، كونه مبنيا على الرؤيا، ومرسوما بأسلوب التعبير المجازي غير المباشر لصورة مأساة حلبجة، فالمجازت والرمزية والتماهي والتعتيم كل ذلك من خصائص هذا النص (علي، 2016, 17-22).

ولا تنفكُ صور الطفولة المعذّبَة تطالعنا في قصائد الشعراء وهم يجسّدون معاناة حلبجة، هذه الطفولة التي لم تجد مهرباً من الحرب، وهي في حقىفتها غضَّةٌ طرىَةٌ لاتقوى على سعىرها، ومن ذلك قول الشاعر

محسن جواميِر :

يا أيتها المدينة الحزينة

أبكيك ورب الكعبة والمدينة

ابكي لأطفالكِ الذينِ

لفهم غاز الغدر

وهم بعد لمْ يشبعوا

من ثدي صدر أمهم الحزينة (الحيدر, 2012 ,انترنيت)

إنَّ هذا النصّ لا يقف عند بكاء مدينة حلجة، وإنما ىنتقل إلى بعد آخرَ، وىفجّ دلالة أُخرى، وكلُّ هذا وذاك ىصبُّ في إظهار ظلم العدوان وهمجيته، فضح لنا همجىَة هذا العدوان التي لا تمتلك أخلاق المحاربين، فهي تسعى إلى استلاب الطفولة وإيذائها، وفي ذلك قتل للبراءة وابادة النسل وهدم الأجيال.

لقد عمل الشعراء على استحضار صورة الحرب عن طريق حديثهم عن الأسلحة، وفعلها في الأماكن، وأثرها على قمع الإنسان، فقد كشفوا النّقاب عن صورة أسلحة الحرب، وسلّطوا الضّوء علىها، فهي لاتترك مدينة حلبجة إلا دمرتها وأضرمت النار وأحدثت الخراب فىها، فكانت مقصدىة الشّاعر من إكثاره من الحديث عن الأسلحة لتوصيل فجيعة الحرب، فهذه االأسلحة هي أداتها التي تقتل، وهي التي تجسّد حجم الفجيعة التي يستقبلها الإنسان في زمن الحرب، وكان غاز الخردل حاضرا في معظم القصائد التي كشفت عن الجريمة البشعة التي حلّت بمدينة حلبجة، يقول الشاعر سعدي يوسف:

الغيوم التي هبطت خردلاً أسوداً في الرئات

الغيوم التي ربطت عقدة الموت حول الصباح

الغيوم التي خثرت دم أطفالنا

والغيوم التي خمرت خبز ابليس في حدقات الاصيل

هل تراها ستعبر من غيضة السرو

حتى تمس النخيل ؟

كان أكراد آذار في هدأة المستحيل(فياض, 2004, 80)

فهذه الدلالات جمىعاً: (هبطت خردلا أسودا، خثرت دم أطفالنا، ربطت عقدة الموت، خمَّرت خبز ابليس)، تشتبك وتلتقي في مدلول واحد، وتصبُّ في غاية واحدة، هي سلب حياة الإنسان، قتلا وموتا،وفي تكرار الشاعر لفظة الغيوم المحملة بغاز الخردل بدلالات متقاربة، تكرار لمشهد الموت المريع، واعلان عن عدم انتهائها، فهذه الغيوم التي هبطت خردلا أسودا لا منجى ولا مهرب منها، وهي صورة ناطقة لماهية اللهيب والحداد الازلي الذي لم يزل يعيشه الكورد كلما مرت عليهم ذكرى مدينة الحزن وهو حداد سيرافق الاجيال.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

وقد تبرز عدد من النصوص الشعرية الجانب الإعلامي الذي ينقل قضية حلبجة إلى العالم، وذلك بعرض الحقائق، ورفض الظلم الواقع على هذه المدينة، إذ يكشف الشاعر بشاعة الفعل، وتجاهل العالم لما حل بهذه المدينة من جريمة بشعة، فالشاعر يصب خيبة أمله فيمن تخاذل وتهاون، وكأنه يتساءل، ماذا يقول لخمسة آلاف شهيد قضوا نحبهم وهم لا يعرفون ما هي جريرتهم، وفي ذلك يقول الشاعر العراقي عبد الاله الصائغ في قصيدته (حلبجة أميرة المدن):

وانت ياحلبجة ياكعبة الحرية

تتلفتين باحثة عن كلمة طيبة تقال فيك

عن اغنية شجية تدغدغ مساءاتك

عن مروءة تصرخ في وجه العالم البليد

قائلة : ألأني كوردية عليَّ ان احتمل العذاب

ألأني طاهرة تركتموني لرحمة النجسين

ايها العالم لماذا يستفزك مقتل باندا في الصين

ولا يستفزك خمسة آلاف ملاك قضوا في دقائق

وهم لايعرفون تحديدا جريرتهم

تنتفض الأنا الشعرية لتقوم بدورها التحفيزي، في ظل حالة عدم الاكتراث والاستخاف التي يبديها من كانوا سببا بما حلَّ بهذه المدينة المنكوبة من عذاب ودمار، ولذلك فقد حمّل الصائغ قصيدته هذه دلالات سامية، إذ تنطلق حلبجة من سكونها المكاني لتتألق في أفق دلالي رحب، ولذلك لم يكن ذكر حلبجة في هذه القصيدة طارئا، وإنما جاء لينمَّ عن حبٍ عميق ومشاعر فياضة، جعلت منها دلالة ينطلق منها الشاعر لبيان فضائل هذه المدينة التي كانت سببا فيما تعرضت له من اعتداءات، إذ يقول:

لأنك عزيزة..لأنك طاهرة لانك عظيمة

لأنك مسالمة..لأنك كبيرة..لأنك كوردية

عشقناك ووضعنا ترابك كحلا للعروسات

وترياقا للعافية

لأنك كذلك احرقك البعثيون والفاشيون

وهم الساعة يتكتمون على مأساتك

حلبجة (الصائغ, 2005، انترنيت)

وتتشابه مشاهد المعاناة والألم التي يتعرض لها أبناء هذه المدينة، وتزداد بشاعة الصور لتصل إلى أعلى درجاتها، وتتفجر مشاعر الالم عندما يتعلق الأمر بقتل الطفولة البريئة، وقد مال الشعراء إلى استخدام المفردات ذات العلاقة الوطيدة بهذه معانات، وذلك في إطار بيان فعل الزمن القاسي، إذ انعكست النظرة السوداوية للألفاظ (مسمومة، قتلت، مقبرة، الموت، القتلى، سواد، دخان)، على بناء الصورة، وامتدادها بشكل لا شعوري، فجاءت معبرة عن الألم، تحمل في طياتها فعل الإدهاش، والتكثيف، وتنامي صورة القتل الجماعي المكثف للأجساد كما في قول الشاعر العراقي بلند الحيدري في قصيدته (لكي لا ننسى):

وإذ كانت عيون صغارك يا بيتي يا بلدي

تسبح في ألق الشمس

وتطل في كل زهيرات النرجس والورد

هبت ريح مسمومة

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

نفثتها عينا بومه

لتسمم كل صغارها يا بيتي ..يا بلدي

إنَّ عنوان هذه القصيدة (لكي لا ننسى) مقصود وعنيف في المعنى والتركيب، صيغ بأدوات تعبيرية متنوعة من (لام التعليل) وتوكيدها بـ(كي)حرف التعليل ثم (لا النافية) ثم الفعل المضارع المصاغ بصيغة المتكلمين (ننسى) الحبلى بفاعل مستتر جمعي (نحن)، في إطار مساحة محدودة، لكنه لمفهوم واحد، تأخذ دلالته منحى الثأر والإنتقام، إذ يهدف به الشاعر إلى مفهوم الحذر والتهديد المبطن والإنتقام، وهو عنوان حيوي مثير لكنه غير ملتحم عضويا بالمتن ولم يترشح منه، وإنّما تصدر المتن عن غاية وموقف، لما يدور داخل النص من أحداث، إذا فهو ثيمة خارجية تنبني على ما في المتن ولم تفرزها الملابسات النصية تعبيرا، فهو بذلك أكثر انتماء إلى الحياة والواقع منها إلى المتن وصورته على الرغم من حيوته وثرائه الدلالي(علي،2016, 20-21).

فحين نقرأ هذا المشهد من هذه القصيدة نجد الحيدري يصوّر مشهداً حقيقياً طافحاً بالحزن من مشاهد الموت في العراق، فقد صار مشهد الموت المجانيّ في العراق مألوفاً، بل" صار مدارا للناظرين والرائين، قريبين وبعيدين، وموضوعةً أو ثيمةً مندسّةً بقدر ما هي مُشهَرةٌ لإعادة إنتاجها عبر المتخيّل الإبداعي، سواءٌ الشعريُّ منه أو السرديُّ في شكله الروائيّ والقصصيّ والمسرحيّ، بل بدت صورةُ الموت تلاحق المُثقَّف على انها همٌ وجوديٌ ضاغطٌ على وجوده وعلى ذاته بوصفه إنساناً ذاق مرارتها نظراؤه من البشر، بل وموضوع ضاغطٌ على مخيّاله وذاته الكاتبة بوصفه مبدعا معنيّاً بإنتاج قول ذلك الموت جمالياً لا رغبةً بذلك، وإنّما بالاضطرار المشوب بإحساسٍ مأساوي" (رسول, مجلة الأقلام 2010،136)، إذ يقدّم الحيدري هنا صورة أخرى لتراجيديا الجسد، وهي صورة القتل المكثف، عن طريق عرض بانوراما فاجعة حلبجة على نحو تسجيلي بين الرمز والتفصيل، وذلك بالإيغال في حيثيات الحدث الواقعي، ، بدءاً بعرض وسائل القتل وأدوات التقتيل، من هبوب الريح المسمومة تنفثعا عينا الومة، تجسيدا لما كان في الواقع، إذ القنابل كانت غازات كيمياوية سامة ترميها طائرات النظام البائد، ثم بيان الغاية والوافع لفعلهم الشنيع هذا، والهدف الخبيث منه هو تسميم الأطفال، وبذلك فإنَّ المتلقي لا يجد في هذا النص أية صعوبة في تجميع أشتات الصورة الكلية في محور دلالي واحد وهو القتل الجماعي،" لأنَّ فورة المشاعر ووحدة الإتجاه العاطفي وبروز التوافق بين الموقف وأدوات التعبير، كل ذلك أضعف من شأن الرمزية والمجازية في التعبير، وقوى من حيوية تيار الغنائية للقصيدة، فالعلاقات بين الداخل للمتن وخارجه غير متباعدة، فالمسافة بين الدال والمدلول لا تنهض شعريا، إذ الاسماء والألفاظ تشير إلى مسمياتها الحقيقية دون ترميز أو تعتيم" (علي،٢٠١٦, 22).

وبعد هذا العرض الافتتاحي لتصوير وسائل القتل والغاية من وقوعه، يصوّر الشاعر مشهدا آخر من مشاهد كارثة حلبجة ولحظاتها المأساوية، إذ يقول:

قتلت فيمن قتلت... ولدي

سرقت فيمن سرقت .. ظلي

الدرب لبيتي أمسى مقبرة

تمتد لألفي مقبرة

في كردستان

لا شيء سوى الموت وظل الموت

ما من نرجسة تحلم ان تكبر في البستان

ما ترك الأوغاد..إلا القتلى ورماد القتلى وسواد دخان (الحيدري,1992, 768).

يصوّر الحيدري في هذه الأبيات مشهدا مريعا للموت "وهو مشهد الحدث الرئيس(كذا)، على نحو شمولي، في تركيبين متوازيين للدلالة على سعة الحدث وهول المشهد وهمجية القاتل، بقوله: (قتلت فيمن قتلت...ولدي)، و(سرقت فيما سرقت...ظلّي)، بتصوير مستغرق لمشاهد القتل

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

والسرقة، لكل ما فيها من الإنسان والأحياء والنبات والهواء، أي ما كان الجاني يريد القتل الحسّي المحدود للجسد، وإنّما أراد قتل الوجود فيهم عن طريق التطهير العرقي والإبادة الجماعية، فـ(الولد) النسل و(الظل) لازم الوجود وكيانه " (علي، 2017, 59) ، ومثل هذه النفي الشمولي للموجودات وتنحيتها بهذه الكثافة من دائرة الوجود والتمثل، أسلوب استغراقي يقصد منه ابلاغ الصورة ذروة محنتها وشناعتها(عبيد،2010, 73) لذلك أتت مشاهد المكثف كلها منجزة عن طريق تكثيف حدثي بارز، يقابله تكثيف تعبيري هادف، كله حصر واستغراق، من تسمم الصغار بالمفهوم الجمعي، وبأداة التكثير(كل)، والقتل الجماعي الشامل المنجز بأسلوب التعميم الشمولي، والسرقة الكبيرة المنجزة بأسلوب الإستغراق، والمقابر الكثيرة المنتشرة حتى في الدروب، بأسلوب المبالغة(تمتد لألفي مقبرة)، وسعة حجم القتلى وكثرة الأشلاء بطريقة الإستغراق القائم على دمج الشعري بالواقعي، وتقريب التعبير الشعري من الحياتي، إلى درجة الشتم بقوله: (ما ترك الأوغاد) (علي، 2017, 59) . وبالفعل، فقد عملت الحرب على اجتىاح الحىاة جمىعاً، فغدا البيت مقبرة تمتد وتمتد، بل حتى زهيرات النرجس والورد التي هي أسمى أشىاء الجمال في الطبىعة والحىاة يحيلها القصف إلى دخان، فلا مهرب من الدُخان/القتل آنئذٍ.

المبحث الثالث/ حلبجة الصمود والتحدي:

عكس الشعر العربي المعاصر في نصوصه الشعرية بعداً مقاوماً، كشفت عنه صور الصمود التي يحياها الشعب الكوردي برغم الدمار والخراب الذي حل بمدينته حلبجة، إذ تحمل هذه الصور حالة تحفيز مستمرة لفعل المقاومة والتحدي، ولعل هذه المقاومة ولّدت عند الشاعر شعورا غائرا بالظلم، واحساسا عنيفا بالقهر، من ذلك ما نجده في قول الشاعر عبد الستار نور علي في قصيدته (هذي حلبجة):

هذي حلبجةُ لم تزلْ مقرونةً بالشمسِ حتى لو نويتَ دمارَها
فالشمسُ إنْ ضمتْ سحابٌ وجهَها ستظلُ شمساً يستحيلُ ستارُها
يا شعبَ كردستانَ حرقةُ لاعجٍ حملَ الجراحَ على الضلوعِ ونارَها
كم في مسيركَ هجرةٌ ومحارقٌ تتشققُ الأرضون من آثارِها
ويحَ الطغاةِ وإنْ تنمرَ ذلُهم لحفيرةٍ تهوي لتلبسَ عارَها(علي، 2019، انترنيت)

ولعلّ الإمعان في الألم، قد يلجأ الشاعر إلى أسلوب التساؤل الذي يعبر عن روح قلقة، لذلك تكثر التساؤلات بحثاً عن الذات المعذبة، ومحاولة تلقي صدمة القتل البشع، يقول الشاعر العراقي عمانوئيل كمنو:

سلوها عن دِما القتلى ، سلوها سلوها أين قد ضاعوا بنوها
سلوا البلوى عن الموتى، سلوها سلوا الثكلى عن السلوى، سلوها
سلوا الأكفانَ كم ضمَّت شهيداً سلوا الأرماسَ كم وارتْ بنيها
سلوا الطاغين عن هذي المآسي فكم من صرخةٍ للثأرِ فيها (زنكنة، 989 ,44).

تشير دلالة النص اللغوية إلى طبيعة هذه المعاناة، فجاءت ألفاظ(الثكلى، الأكفان، الأرماس، النوح، النادبات) ذات دلالة تعبيرية واضحة للقمع ، وصورته القاتمة التي تثير الاشمئزاز في النفوس، ولذلك يطلق الشاعر صرخة مدوية، تنبض بالوجع ، فالثيمة الموضوعية البارزة في هذه القصيدة سؤال موجع، إذ استهلّ الشاعر أبياته باستفهام انكاري في قوله:(سلوها)،وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام، لبيان ما تمتلكه المدينة من قدرة على مقاومة فعل الزمن السلبي، الذي يستبدّ بساكنيه، ما جعل استحضار المدينة في سياق أسلوب الاستفهام باعثاً للطمأنينة في ظلّ الفاجعة القاسية التي حلّت بحلبجة. ولا شك إنّ المتابعة التحليلية تشدّنا إلى رحابة الفضاء الذي يحيط بهذه الأبيات الشعرية، وتحديد فاعليتها في تحديد خطوط الدلالة فيها، فإلحاح الشاعر على دال بعينه(سلوها) الذي كشف التأمل عن تكراره في الأسطر اثنتا عشرة مرة جعله نقطة الارتكاز في الصياغة وفي التحليل أيضاً، حيث دوران الأبيات الشعرية حول المرتكز الدلالي وبؤرة

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

الانفعال(سلوها) خلق توحداً شعورياً في نسيج الأبيات، وترديده شكل تحدياً صارخاً للعدو بالاصرار على مقاومته، ليؤكد على ابراز مأساة هذه المدينة المنكوبة، وتوضيح أبرز ملامحها القادرة على صياغة هذه الصورة المؤلمة لمدينة حلبجة. كما وسيطر على هذه الابيات الشعرية ضمير الجماعة، الذي تتماهى فيه شخصية الشاعر، فالذاتية في هذه القصيدة تذ وب في أحضان الجماعية، وفي النص بطولة جماعية تختلط بها الأفعال الفردية، كما أنَّ خصوصية المأساة قد فرضت على الشاعر النفس الجمعي، لأنّها ضد عدو، من هنا غابت البطولة الفردية وانصهرت في البطولة الجماعية تمثيلاً لحالة التوحد والاتصال، ولا يخفى إنَّ تعدد القوافي في هذا المقاطع وتعدُّد الرويّ، كسر رتابة القصيدة، وأضفى عليها نغماً متنوعاً، يطرب أذن السامع ويمتعه.

ومن البنى الموضوعيّة في الشعرِالعراقي المعاصر التي تناولت فجيعة حلبجة : بنية الرفض، وعدمِ الاستسلام، فعلى الرَّغم من توصيله فجيعة هذه المدينة للمتلقي، إلا أنّه بالمقابل عمل على رسم صورة أخرى للحياة، تظهرُ في أشدِّ اللحظات حرجاً، وفي أشدِّ الأوقات التي تجَسِّدُ فيها الحربُ همجيّتها، فالحياة في حلبجة لا تتجدد بطريقة آلية، بل بالتحدي أمام الأهوال، والاستمرارية في العطاء والإرادة القوية في الصمود يقول الشاعر رمزي عقراوي في قصيدته في صدري:

فحيّوا ثورتها...

وحيُوا كفاحها...

وما استسلمت أبدا للظلم المميت

ولا خفضت يوما جناحها للذل المقيت

وقد قطف الجناة...

أرواح أبنائها الأبرياء

فزكت حلبجة الشهيدة (عقراوي, 2018، 58)

تجلّت في هذه المدينة أهم سمة انسانية، وهي قوة الارادة وتحدي الواقع الأليم، فهي لم تستسلم للظلم المميت، ولم تذل وتستكين، ومما عمق من دلالة صورة الصمود والتحدي التناص القرآني في قول الشاعر (ولا خفضت يوما جناحها للذل المقيت)، وفي ذلك تناص مع قوله تعالى: وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً" (سورة الإسراء، الآية 24)، والتناص هنا يقدّم خدمة شعريّة من خلال الإزاحة، فالمفروض أن يكون الخافض الابن أمام الأبوين ، لكنّ الشاعر يقدم المدينة خافضاً أمام الجناة، وهذه الاستعارة المكنية تمنح النص طلاوة، وتكسبه قوة وتأثيرا، ففي سياق الآية القرآنية" أضيف الجناح إلى ما ليس له وهو الذل، فقد ساهمت هذه الإضافة في إبراز الذل في صورة طائر يخفض جناحه تواضعا وتذللا، وهو ما يتناسب مع الأمر باللين والتواضع والتذلل في معاملة الوالدين " (، التركي،2013, 86)، ولكن الشاعر أزاح دلالة هذه الاضافة ليبرز صورة الإباء والشموخ والتحدي لمدينة حلبجة.

وبرغم جهامة الواقع وقسوته، وبرغم المعاناة، فإنَّ خطاب الشاعر لا يركن إلى اليأس والاستسلام، بل يتّسم بالتحدي والمواجهة، وفي ذلك قول الشاعرة بريزاد شعبان في قصيدتها (انحني لكم خمسة آلاف مرة):

وأقول بشراكم يا قرَّة الفؤاد

عودوا يا احبتي فكل شئ ينتظركم

عودي يا اميرة حلبجة ...ياعروسة حلبجة

المرجوحة تناديك

والثوب المطرز بالألوان يرقص شوقا لترتديه

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

عودي يا فلذة القلب

وامرحي في المراعي ...واقطفي النجوم

اقطفي الشمس والقمر

زيني بها خصلات براءتك

كـي تتفتح الزهور على خديك

ويعلن الربيع مجئ موسم العدالة

عودي يا مولاتي يا سيدة حلبجة

ودندني لى لى ولولو مع غفوة المهد

غني يا مولاتي للنائم فيه ...و قولي عدنا...

رجعنا وها هو والدك يزرع الحب في بستاننا

وها هم أخوتك يحضرون الحقائب المدرسية

ويعدون نحو الصفوف

ها هم يكـتبون على لوحة القدر

لقد عدنا (شعبان، 2010، انترنيت)

هنالك تلازب وتلازم بين العنوان والنص، فجاء العنوان ليشير إلى عدد ضحايا مجزرة حلبجة الشهيدة، وهي تناشدهم العودة. ومما يلاحظ أنَّ هذا النص يتجاوز انكسارات الواقع إلى أبعاد أخرى، تندرج في إطار الصمود والتحدي، فقد شكَّلت هذه القصيدة رافدا مهما من روافد استكشاف المستقبل، وتخطي الواقع المرّ الذي مرت به هذه المدينة المنكوبة، إذ ينبع الأمل بدلالة عدد كبير من الألفاظ التي تحمل أفقا جميلا لتلاشي فعل الموت والدمار الذي حل بهذه المدينة، ومن الملاحظ أن الشاعر يستحضر جمال حلبجة الذي شوَّهه القصف، فهو يؤنسن حلبجة، مصورا إياها بصورة امراة حسناء يطلب منها الشاعر العودة لكي ترتدي ثوبها المطرَّز بالألوان، وتمرح في المعاني وتقطف القمر والشمس والنجوم. وجدرير بالذكر " إنَّ تصوُّر الشاعر الحديث للمدينة في صورة امرأة... يكاد يكون قسطا مشتركا بين عدد كبير من الشعراء، وهي صورة ليست جديدة، بل هي متوفرة في الأدب القديم والوسيط...ومن السهل أن نجد العلَّة في استعمال هذه الصور، فالمدينة في اللغة (مؤنثة)، وفي معظم الأحيان كانت حركة التأريخ ضد المدن فتحًا واجتياحًا واغتصابا لها ولنسائها ولمواردها، وهي ما تزال كذلك إلى اليوم" (عباس، 1978. ،91، 93)

وهكذا يستمر الشاعر في رسم هذه الأجواء الحالمة لمدينة حلبجة، وهو بذلك يسير على نهج الرومانسيين في نزوعهم للحب والجمال، ليبعث الأمل على الرغم من ظلام الواقع.

المبحث الرابع/ حلبجة بين الواقع والحلم:

الحلم هو عبارة عن" مجموع الصور التي يراها النائم في نومه، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على ما يراه من الشرّ والقبح) (صليبا،1982, 1/ 496) ، وهو" أمنية بعيدة التحقق.سلسلة من الصور النفسية تتراءى للإنسان في نومه (عبد النور,1984, 98). ويرى علماء النفس أنّ الأحلام في جوهرها تنبيهات نفسية وتجليات لبعض القوى النفسية ... وقد تطلق الأحلام على الآراء البعيدة عن الواقع" (فرويد، 1982 ، 59)، أي أنّ الأحلام هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع الفرد عن طريقها أن يبني واقعاً مجازيا يتمناه ، غير واقعه الحقيقي الذي ربّما يكون واقعا مأساوياً،" فالحلم احتجاج مستمر على واقع بات واقع قهر، وهو

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

لذلك تصحىح سلبي لهذا الواقع الفاسد" (تاورىرىت,2006، 160) ، والحلم أساساً عبارة عن رؤى استشرافية عن رغبات ونبوءات، يتخذ منها الحالم سلاحاً لتغيير واقعه، بصناعة عالم خال من المشكلات، ومعنى هذا أنّ الإنسان الحالم هو من عاش واقعاً ألىماً، ىحاول أن ىتجاهله أو ىنساه بافتعال أو رسم عالم آخر غىر حقىقي. أما في الشعر العربي المعاصر فنجد "توظيف الحلم إلى حدّ كبىر، وتعتبر(كذا) نازك الملائكة من أكثر الرّواد احتفاءً به وتطويراً له في خطابها الشعري، خاصة قصىدة الخىط المشدود في شجرة السرو، التي تقىمها على قصة حلمية " (تاورىرىت, 2006،165 -164).

لجأت الذات الشاعرة في الأشعار التي صوّرت مأساة حلبجة إلى الحلمية، كي تضع حداً لمسار الحدث الواقعي الموجع، ولتضع بذلك بداية لنهاية مأساوية، علّها ترسم ملامح أخرى، فالذات الشاعرة الجريحة تدرك حقيقة الحلم ادراكا لا يجعلها تنساق وراءه أو تستمتع بدفئه، إذ يمدُ الحلم شخصية (البطل = المدينة) بشحنة كبيرة من القدرة على التماسك والثبات، لدرجة أنه أصبح قراءة واعية لواقع الشخصية، وبذلك لا يكون الشاعر منفصلاً أو مبتعداً عن الواقع" فالانتقال إلى مسافة الحلم في مثل هذه الحالة، يعطي الشاعر شحنة من التوافق مع القادم من جهة، وقدرة كبيرة لتحمل الصعوبات الآنية والضغوطات المستمرة في مثل هذا الخط من التعلق بكل مساحة الضوء المقبلة، يفتح الشاعر العين والقلب والإحساسات لتكون في وقع جديد يستطيع أن يثبت ويصمد ويقاوم " (سقيرق, 1993، 4).

إنّ حلم الشاعر ليس حلم الغيبوبة والوهم، بل هو حلم البطل، الحلم/الثورة، الحلم الذي يدرك بوعي تام مدى قتامة الواقع وجهامته، ولكنه يزداد اصرارا مع هذا الوعي على أن يرسل شعاع الأمل والتفاؤل، ليخترق كتلة الظلام واليأس، ليعانق توق الوجود إلى الحلم بواقع أكثر اشراقا، بذلك تتسم رؤية الشاعر ويبقى هذا المفهوم الإيجابي للحلم هو الإطار لرؤيته الحالمة، ويمكن للقارئ أن يلمح بوضوح أن الوجدان الوطني يمثل مكوناً أساسياً من مكونات البطل الحالم، يقول الشاعر ديدار عبد القادر في قصيدته (لماذا حلبجة مرة أخرى؟):

يا ابنة الشمس..

من قال أن الموت قد مات؟..ربما غفا قليلا

وربما صدأت أحلامه..

لكن بين الحرائق كان ناي صامت ينوح

وعويل الألم يوقظ في الذاكرة

موت يصحو أبدا.. كانت الجسور حبلى بالمواكب

وكنت تحرقين في رحلة الموت قدميك

ومن الفجر اللاهث ..نفخ الردى في الصور

أواه... لم يتناول الرميم إفطاره بعد

ابتسر الحلم (الحيدر، 2013، أنترنيت)

يشكل الحلم في هذه القصيدة بؤرة محورية، وتشكل اللغة التصويرية فيها مكونا فنيا وخاصية أساسية، لقد وظّف الشاعر دلالة الحلم في القصيدة بمعنى الأحلام التي تخرج الذات من أزمتها الخانقة ووجعها المؤلم، ولو مؤقتا لا بمعنى الأحلام التي يراها الإنسان في منامه من تخيلات وصور، فالشاعر أراد إعادة ترتيب الحياة والعالم عبر التخيل والتصور، فالذات الشاعرة تختزن كثيرا من الألم والمعاناة الذاتية والإنسانية، تفجرها عبر الحلم واللغة الشعرية.

هناك ثمة تيار شعوري يهيمن على هذه الأسطر الشعرية، فهي تتأسس على رؤية حالمة تسعى إلى

تغيير واقع مهزوم وتطمح إلى تجاوزه وتغييره، وقد تجلّت تيمة الحلم بصورة واضحة في الأسطر الشعرية، وذلك من خلال مجموعة من الإشارات والعلامات الدالة عليها، منها تصريح الشاعر بهذه الكلمة في نهاية المقطع، وتتعالى نبرة الحزن لدى الشاعر، فتبرز الألفاظ المعبرة

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

عن تلك المعاني بطرائق مختلفة، تنم عن حلمه، إذ إنَّ البوح الذي يعبر عن ألم هذه المدينة وتشاؤمها ويجسد أزمتها أيضاً، يوحي بانعدام الهوّة بين الذات وأحلامها وطموحها وقيمها، وبين الواقع المحبط المليء بالموت والقهر من ناحية أخرى.

وقد يخلق الشاعر عالماً مليئاً بالمشاعر التي تنبؤنا بما ذاقه من الألم والمعاناة، وذلك عن طريق استحضار عدد من الاشارات والايماءات الرمزية المؤلمة في التاريخ الاسلامي ، من ذلك استحضار حادثة كربلاء وفاجعة استشهاد الإمام الحسين (رضي الله عنه)، يقول الدكتور محمد حسين آل ياسين في قصيدته (كردستان):

هوَ مِنّـي حلـمٌ يجـــول ُ وإنّـي منـهُ جَفـنٌ يضمه ُحيـن جـالا

دمُـكِ الحـرُ رَغـم أنـف المنـايا أنجـب العــرَّ والمنـايا حُبــالى

هـل درى الليـل أيَّ صبحٍ شذيٍّ اطلق الجرحُ شمسه حيــن سالا

أم درى الغيـهـبُ المكلـــلُ أنَّ التصبـر ينمـو في كل شبرٍ هلالا

كيـف خفَّـتْ الى الحتـوف فـداةٌ حملـت أرضـها همــوماً ثقــالا

كيف أطلعتِ من حلبجة غصناً مــدَّ في في كربلاء جذرا فطالا

مثمراً بالظما حقلاً من الخصب وكـفُ الحسيـن تجنـي الغـلالا

إنَّ لكل نص تشكيله الجمالي القار به، وسياقه اللغوي الذي يتميّز فيه الأداء التعبيري، وتصبح له خصوصيته المنفردة، ولكن هذا النص لا يمكن فصله عن السياق الخارجي سواء اتخذ هذا السياق شكل نصوص أخرى سابقة تبرز فيه احتمالية التداخل والتقاطع مع النص الحاضر، أو اتخذ شكل الأحداث التأريخية والتحولات الثقافية، التي تحدث نوعاً من التراكم المعرفي في مخزون الذاكرة البشرية(، العف, 2000, 67)، "فالقصيدة حين تومئ إلى ما يقع خارجها من نصوص وأحداث ومرويات تفتح ميراثا وجدانيا ومعرفيا مشتركا بين الشاعر والجمهور، وتوقظ الذاكرة الوجدانية الجمالية للمتلقي، ليبدأ نشاطه في استقبال القصيدة والتماهي معها " (العلاق, 1996, 163).

وقد حفلت هذه القصيدة بالتناص التأريخي الذي يؤكد البعد الزماني والمكاني لها ويثري طاقتها التأثيرية، فقد استحضر الشاعر محمد حسين آل ياسين حادثة كربلاء بكل أوجاعها وآلامها وحسرتها وجلالها وهيبتها، ليصور نكبة حلبجة، فتألق ثورة الحسين وما في رموزها من جاذبية آسرة، كانت صورة للروعة والجمال، ما جعل يرى في الإمام وفي كربلائه ملجأ وقبلة. وتؤشّر القصيدة بعدا متداخلا بين الواقع والحلم من جهة، وبين جدلية الصورة واللغة الشعرية من جهة أخرى. إنَّ بطل كربلاء برز في بعض رموز الشعر العربي رمزا للظلامية والمقاومة والشهادة والإباء، ولذلك فما من مشهد أفصح تعبيرا عن الظلم الذي تعرَّضت له مدينة حلبجة، من حادثة شهادة الحسنين ولا سيما الطفل الرضيع، فالحديث عن الامام الحسين(رضي الله عنه)، حليف الأحزان والأشجان.

ولطالما شكّل الحلم السؤال الوجودي الأهم، وإلا فما حاجتنا له؟ يعني أنْ أتماهى مع ذاكرتي، فالحلم هو الخطوة الأولى لتحقيق ما نطمح إليه، ومن خبايا الحلم تنطلق الرغبة في التغيير، يقول الشاعر خلدون جاويد في قصيدته (عراق المسلات والعتاب):

أتشعرُ أمْ أنتَ لاتشعرُ بأنَّ سكوتكَ ذا مضجرُ

وجرح الضحايا فم صادحٌ على جانبيه الدما تقطر

وانك بالشعر ذو صولةٍ لأنكَ من غمده الخنجرُ

فماذا دهى عبقري الدنا تبرأ من صمته عبقرُ

وجفن لعشتار عن دمعة تمرّق والقلب والأبهرُ

فكم من حسين بكت كربلا وكم من عليّ بها يُغدرُ

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

وكم (حسن)سمّهُ مارقٌ وكم (مسلمٍ) مرغما يكفرُ

وكم جبهة خضّبَت أرضَها وباسَ نضارتها الأحمرُ

وجفَّ ولم تكترثْ ثاكلٌ من الصبر خافقُها أصبُر

وأضنى الثواكل من لم تجدْ ثرىً للفقيد به يُقبَر

عارض خلدون جاويد في هذه القصيدة قصيدة الجواهري (أخي جعفر) التي رثى فيها أخاه حين سقط صريع رصاص الشرطة اثر انتفاضة كانون 1948 والتي مطلعها:

أتعلمُ أمْ أنت لا تعلمُ؟ بـأنَّ جـراحَ الضَّحايا فمْ؟ (الجواهري, 1980, 259/3)

إنَّ مشهد الصورة الحواري بين شخصيتين، الشخصية الأولى الشاعر الجواهري، والشخصية الأخرى الشاعر ذاته وهو المتلقي والمخاطب والمستمع، والشاعر (التاريخ) من خلال تساؤلاته الموجعة يظهر الواقع الذي يعيشه العراق، فمظاهر الألم والشقاء منتشرة في المكان والشخوص، فأينما تنظر ستقع عينك على هذا البؤس وهذا الشقاء على امتداد تأريخ العراق، إذ يظهر تتابع النكبات والمصائب والجرائم البشعة التي حلّت بهذا البلد ومنها ما تعرض له الإمام علي من غدر، واستشهاد الإمام الحسين في حادثة كربلاء، وقتل الأمام الحسن مسموما (رضي الله عنهم وأرضاهم)، "ويشير النسق التكراري لعناصر الجمل الاستفهامية، التي تعمل على ربط السياق الشعري، إلى اعتبار(كذا) الاستفهام أداة فاعلة، تشكل أساس البنية الدلالية للنص" (موسى, 2005،72). والشاعر في هذه االقصيدة يركز على المكان بعمقه التاريخي، ويجعل منه منبعاً لحوارية اللغة، وحوارية الصورة، ومنجماً لتزويد قوة التعبير عن الجريمة التي تعرضت لها مدينة حلبجة، فتساؤله هذا ربما يريد أن يستحضر صورة الماضي وما حصل في العراق من جرائم، ليقدّم صورة عن حلبجة متماهية مع الصور السابقة، وأنَّ التاريخ يعيد نفسه، إذ يقول:

(حلبجة) مئذنةٌ ناشدتْ وناداكَ ناقوسُها الخَيّر

ولا زاجل منك يهفو لها مع الحلم او غفلة تخطرُ

تشد على جنحه قبلة وتدمع في كفّه الأسطر(جاويد، 2006 انترنيت)

يتجسَّد الحلم جليًا في هذه الأبيات، فالنص يعبر عن رغبة ملحة للشاعر خلدون جاويد أفصح عنها سابقا في يقظته حينما استهل قصيدته باستفهام انكاري (أتشعرُ أمْ أنت لاتشعرُ)، وهذا السؤال ينمُّ عن علم بالإجابة لا جهلا بها، وهو موجه الى الشاعر الجواهري، ويحوي نبرة عتاب موجعة، فخلدون جاويد يرى أنَّ الصمت في الأحداث الجسام ذل، وكل من يسوِّغ صمته بالخوف او بدواعي مجافاة السياسة، فانه معزول بشريا، وكل من يدَّعي شاعرية العزلة سبيلا مضادا للوطن والنكبات الوطنية انما هو وشعره وشاعريته وصمة عار في ذاكرة الشعوب . وقد كرر جاويد هذه الرغبة على مدار القصيدة، وعاد ليعبر عنها هنا في حلمه، فجاويد يتمنى في حلمه أن يخرج الجواهري من صمته، فحلبجة العظيمة تناشده، وتناديه بأن يلتفت اليها ويشعر بمأساتها ولو في حلمه، وبذلك يبدأ الحلم بالتشكل عبر تبيان الرغبة.

لم تستسلم القصيدة التي صوَّرت فاجعة حلبجة للشروط التاريخية والجمالية والشعرية السائدة في الشعر، وتطمئنّ لنفس المُتخيَّل المكتسب سابقا، بل سعت للحفر في التضاريس الوعرة للغة والمتخيل، بحثا عن ينابيع جديدة تغذّي رؤية الممارسة النصية، وذلك عن طريق الركون إلى الحلم، لتشكيل صور غير مألوفة عن مدينة حلبجة، يقول الشاعر عبد الستار نور علي في قصيدته (محمود من حلبجة):

الحلمُ ينبضُ بينَ أشلاءِ الصغارْ

في حضن أمٍ فوق تنورٍ ومسجورِ

رغيفٍ سوّدتهُ يدُ الدخانِ الأبيضِ

المنشورِ منْ فم قاذفاتِ النارْ صُنّاعِ الدمارْ

محمودُ يُغلقُ ناظريهِ يعيدُ صورةَ أختهِ نيفينَ

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

تقفزْ بينَ أحضانِ الحقولْ

كفراشةٍ تزهو بألوان الفصولْ تشدو بأغْنيةٍ

وتقطفُ زهرةً بريةً حمراءَ تشربُ عطرَها

كأساً من الغزلِ العفيفِ ووجهُها بدرٌ

وأمّا زرقةُ العينينِ لونُ سماءِ كوردستانَ والجبلِ الأشمْ

يرسم الشاعر لحلبجة صورة يستحظر فيها معظم الصور السابقة، إذ يجمع بين الذاكرة الموجعة التي تتجسد فيها أبشع صور المعاناة، وبين صور الصمود والتحدي، في واقع مرير يغذي أحلام الشاعر بصور قاسية ومؤلمة عن هذه المدينة المنكوبة، ويكشف الحلم في هذه القصيدة أول ما يكشف عن خصوبة في مخيلة الشاعر وغنى موهبته وإبداعه، وقدرته الفائقة على إعادة تشكيل الواقع من منظور يتجاوز فيه الطرائق التعبيرية القديمة. وبذلك تصبح اللغة ذات حمولة دلالية وتعبيرية تمنح الألفاظ معاني جديدة، وشحنات رمزية تتجدد معها القراءة الفاعلة من قراءة إلى أخرى بل ومن قارئ إلى آخر. يستهل الشاعر قصيدته بالحديث عن الحلم، إذ لا شيء يمكن أن يمنحه الاحساس بالتوازن النفسي عندما يصبح الواقع سوداويا غير الحلم، فالحلم وقاية من الانكسار، بيد أن حلم الشاعر حلم يستمد صوره وأخيلته من واقع مرير ترسمه صور اشلاء الصغار المتناثرة في أحضان أمهم:

ضحكتْ تمازحُ أمَها يوماً

فألقتْ غصنَها فوقَ اخضرارِ العشبِ: قنبلةٌ!

فهبّتْ أمُها فزعاً لتلقيَ نفسَها فوق الفراشةِ

بينَ أهدابِ الحقولْ

نيفينْ في ضحكٍ طفولي تغوصْ

وهناك حيثُ سحابةٌ بيضاءُ

تنشرُ ريحَها في الأفقِ تبتلعُ البيوتْ

تلقي الرمادَ على الغصونِ،

تهيجُ تنتفضُ الطيورْ هذي فراشتنا ،

تغفو على العشبِ المسربلِ بالرمادِ وبالدخانْ

منْ غيرِ أجنحةٍ ولا ألوانْ،

محمودْ ينظرُ في بطاقاتِ البريدْ

في الغابةِ الخضراءِ في المنفى البعيدْ،

ويعودْ يحلم (علي، 1999،ع177)

إنَّ هذه الصورة التي تجمع بين الحقيقة والحلم، وبين الواقع والخيال، والتي حاولنا لم شتاتها، تختزل جوهر الرؤية الشعرية العميقة التي تتأسس عليها القصيدة، هذه الصورة المحورية تنمو داخل القصيدة وتتشعب من خلال ثنائية الحلم/الواقع، وتتمظهر هذه الثنائية بطرق متباينة من قبيل: الغموض/الوضوح، المحتمل/السائد، التحدي/الاستسلام.. والقصيدة في مجملها تقوم على ترجيح كفَّة الواقع على الحلم، إنْ لم نقل إنها تقصي الحلم من عالمها، وتحتفل بالواقع وما يدور في فلكه، ويتضح ذلك من خلال عنوانها (محمود من حلبجة)، ومن خلال مجموعة من المؤشرات التي يعمد الشاعر عن طريقها إلى رصد الواقع المؤلم الذي تعيشه حلبجة، ويمكن ملامسة هيمنة حقل الواقع في القصيدة وتهميشها لحقل الحلم من خلال معظم الصور التي انحاز فيها الشاعر الى الواقع، فمحمود وهو يغفو يحلم بأخته نيفين وهي تلعب وتغني في الحقول وكأنها فراشة جميلة.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

وبذلك فإنَّ حقل الواقع يهيمن على عالم القصيدة من خلال مجموعة من المؤشرات التي تحيل على الحيوية والأمل والتحدي، والهيام بجمال الطبيعة وبراءة الطفولة، فضلا عن رصد المآسي التي حلت بحلبجة بعد قصفها بغاز الخردل، ذلك الغاز الذي غطّى السحب بالبياض ونشر غازاته السامة في الأفق. أما حقل الحلم، فإنه أضيق بكثير من حقل الواقع، مما يفيد تهميش الشاعر له، باستثناء المؤشرات النادرة المرتبطة بهذا الحقل، وذلك في قول الشاعر: (الحلمُ ينبضُ بينَ أشلاءِ الصغارْ) وقوله: (محمودُ يُغلقُ ناظريهِ /يعيدُ صورة أختهِ نيفين).

وبذلك فلقد لجأت الذات الشاعرة إلى الحلمية كي تضع حداً لمسار الحدث الواقعي الموجع، ولتضع بداية لنهاية مأساوية، علّها ترسم ملامح أخرى لطفولة ونرجسة تأتي فتعانق الحرية والحلم الآذاري النوروزي.

الخاتمة

وما دامت العادة قد جرت قبلنا بأنْ يسجل الباحث أبرز النتائج التي وصل إليها ، نجد لزاماً علينا أنْ نقدّم وصفاً موجزاً نأمل أنْ لا يكون مخلاً لما توصّل إليه البحث :

- لم تستسلم القصيدة التي صوَّرت فاجعة مدينة حلبجة لشروطها التاريخية والجمالية والشعرية، وتطمئن لنفس المُتخيَّل المكتسب سابقا، بل سعت للحفر في التضاريس الوعرة للغة والمتخيل، بحثا عن ينابيع جديدة تغذّي رؤية الممارسة النصية، وذلك عن طريق الركون إلى الذاكرة الجمعية لتشكيل صور غير مألوفة عن هذه المدينة ، وقد سعى الشعراء إلى ترسيخ فجىعت هذه المدينة في الذاكرة الجمعية عن طريق المقارنة بين ماضيها وحاضرها، إذ ىظهر الألمُ جلىّاً، حىن نُقارن بىن حلبجة قبل القصف وبعده، حىنما كانت موئلاً للجمال، وبىن صورتها الحاضرة إذ صارَت خرابا ودمار.

- جسدت القصيدة التي صورت مدينة حلبجة معاناة هذه المدينة، وقد تشكل هذا البعد في جوانب مختلفة، تنطلق من معاناة القتل الذي يحياه الكرد، مما جعل الشاعر يرتد إلى عالمه الداخلي المفعم بمشاعر التمزق والحزن، بعدما عانى من آلام التنكيل بالأهل، فكان شعره صوتاً متفجعا، ولذلك فإنَّ صوت الموت وصورة الخراب، كانا حاضرين دائما بوفاء في تأليف المشهد التراجيدي عند الشعراء الذين صوروا مأساة مدينة حلبجة، فهذه المأساة استوقفت الشاعر العربي عنوة وسقته مرارة الإحساس ما يؤلم نفسه، ويثري رصيده المتضخم من المحن والإحباطات.

- ولا تنفكُّ صور الطفولة المعذّبَة تطالعنا في قصائد الشعراء وهم يجسّدون معاناة حلبجة، هذه االطفولة التي لم تجد مهرباً من الحرب، وهي في حقىقتها غضَّةٌ طرىّةٌ لاتقوى على سعىرها، وكلُّ هذا وذاك ىصبُّ في إظهار ظلم العدوان وهمجيته، إذ فضح لنا همجىّة هذا العدوان التي لا تمتلك أخلاق المحاربين، فهي تسعى إلى استلاب الطفولة وإيذائها، وفي ذلك قتل للبراءة وابادة النسل وهدم الأجيال.

- لقد عمل الشعراء على استحضار صورة الحرب عن طريق حديثهم عن الأسلحة، وفعلها في الأماكن، وأثرها على قمع الإنسان، فقدكشفوا النّقاب عن صورة أسلحة الحرب، وسلّطوا الضّوء علىها، فهي لاتترك مدينة حلبجة إلا دمرتها وأضرمت النار وأحدثت الخراب فىها.

- برز في عدد من النصوص الشعرية الجانب الإعلامي الذي ينقل قضية حلبجة إلى العالم، وذلك بعرض الحقائق، ورفض الظلم الواقع على هذه المدينة، إذ يكشف الشاعر بشاعة الفعل، وتجاهل العالم لما حل بهذه المدينة من جريمة بشعة، فالشاعر يصب خيبة أمله فيمن تخاذل وتهاون، وكأنه يتساءل، ماذا يقول لخمسة آلاف شهيد قضوا نحبهم وهم لا يعرفون ما هي جريرته.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

- تنتفض الأنا الشعرية لتقوم بدورها التحفيزي، في ظل حالة عدم الاكتراث والاستخاف التي يبديها من كانوا سببا بما حلَّ بهذه المدينة المنكوبة من عذاب ودمار، وبرغم جهامة الواقع وقسوته، وبرغم المعاناة، فإنَّ خطاب الشاعر لا يركن إلى اليأس والاستسلام، بل يتّسم بالتحدي والمواجهة.

- عكس الشعر العربي المعاصر في نصوصه الشعرية بعداً مقاوماً، كشفت عنه صور الصمود التي يحياها الشعب الكوردي برغم الدمار والخراب الذي حل بمدينته حلبجة، إذ تحمل هذه الصور حالة تحفيز مستمرة لفعل المقاومة والتحدي، ولعل هذه المقاومة ولّدت عند الشاعر شعورا غائرا بالظلم، واحساسا عنيفا بالقه.

- لجأت الذات الشاعرة إلى الحلمية كي تضع حداً لمسار الحدث الواقعي الموجع، ولتضع بذلك بداية لنهاية مأساوية، علها ترسم ملامح أخرى، إذ يمدُّ الحلم شخصية البطل بشحنة كبيرة من القدرة على التماسك والثبات.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

Halabja in Iraqi contemporary poetry: the tragedy of a memory and a memory of the tragedy

Dhiya Abdulrazaq Ayub

Arabic department, Faculty of Education, Koya University,Koya, Kurdistan Region-Iraq.

E-mail: Dhiya Abduirazaq@koyauniversity.org

ABSTRACT:

This study focuses on Halabja in the contemporary Iraqi poetry: The Tragedy of Memory and the Memory of Tragedy. The genocide that Halabja suffered from has inspired my poets to write about that. The wound of the city is too deep to recover, too tragic to stop shedding tears, and too inhuman that made its images and cries live in our memory forever.

This human calamity has created a haunting memory in the minds of the Arab and Kurd poets in the contemporary poetry because of its brutality and vehemence. Therefore, this adversity has provided poets with a fertile ground on which they have implanted their poems and realistic images that inspired their pens.

The study is divided into four sections and a preface. The preface is concerned with the poeticness of the city in the Arabic poetry. The first section deals with Halabja: the memory of pain. The second section studies Halabja and the portrayal of suffering. The third section delineates Halabcha the city of defiance and challenge. The fourth section focuses on the city of Halabja between reality and dream.

The study comes up with the conclusion that shows the Iraqi poets' revolutionary ideas to fight oppression in the world and change it, and replace it with freedom and justice. The poets have succeeded in portraying the pains and miseries of Halabja, and the suffering of the Kurds.

Keywords: Halabja, poetry, Memory.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أبو غالي: مختار علي، 1995، المدينة في الشعر العربي المعاصر، علم المعرفة، الكويت، 1995.

بنيس: محمد، 1990، الشعر العربي الحديث-بنياته وابدلاتها ، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.

بن ربيعة: المهلهل، د.ت، ديوان المهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، الاسكندرية.

الجواهري: محمد مهدي،1973-1980م، ديوان الجواهري، جمعه وحققه وأشرف على طبعه: د. إبراهيم السامرائي ود. مهدي المخزومي وآخران، مطبعة الأديب البغدادية، الجمهورية العراقية.

زنكنة: هيفاء، 1989، حلبجة، ط1، د.مط، لندن.

الزهيري: جليل ابراهيم، 2013، أسفار الجحيم، جليل ابراهيم الزهيري، مطبعة كارو، منشورات الجمعية الثقافية والاجتماعية، كركوك.

حجازي: محمد عبد الواحد، 2002، الأطلال في الشعر العربي، ط1، دار الوافدين، الإسكندرية.

الحيدري: بلند، 1992، الأعمال الكاملة لشعر بلند الحيدري،ط1، دار سعاد الصباح، الكويت_القاهرة.

كوهين: جان، 1986، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، ط1 , دار توبقال، الدار البيضاء – المغرب .

المالكي: عباس باني، 2013، قراءات في مسارات نقدية، دار العنقاء، الأردن.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

موسى: ابراهيم نمر، 2005، آفاق الرؤيا الشعرية، دراسات في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، وزارة الثقافة الفلسطينية، الهيأة العامة للكتاب، فلسطين.

سىغموند : فرويد، 1982، الحلم وتأوىله، تر: جورج طاربىشي، ط4، دار الطلىعة، بىروت–لبنان.

سقيروق: طلعت، 1993، الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني من قصيدة الثبات الى قصيدة الإنتفاضة في الوطن المحتل، طلعت سقيرق، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

عباس: احسان، 1978، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، الكويت.

عبد النور: جبُور، 1984، المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت.

عبيد: محمد صابر، 2006، رؤيا الحداثة الشعرية، د.محمد صابر عبيد، منشورات أمانة عمان .

عبيد: محمد صابر، 2010، سيمياء الموت تأويل الرؤية الشعرية، دار نينوى، دمشق.

العف: عبد الخالق، 2000، التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر،ط1، مطبوعات وزارة الثقافة، فلسطين.

عقاق: قادة، 2001، دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

الفياض: جمال، 2004، تجربتنا، جمال فياض، ط1، دار الحوراء للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد.

صليبا: جميل، 1982، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربىة والفرنسىة والانجلىزىة واللاتىنىة، دار الكتاب اللبناني، بىروت– لبنان.

الرافعي: مصطفى صادق، 1974، تأريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

رماني: ابراهيم، 1999، المدينة في الشعر الجزائري الحديث الجزائر أنموذجا1925-1962، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر.

تاوریرت : بشير، 2006، استراتيجية الشعرة والرؤا الشعرة عند أدونيس دراسة في الأصول والمفاهيم، بشير، ط6، دار الفجر للطباعة والنشر، القسطنطينة– الجزائر.

التركي: ابراهيم بن منصور، 2013، تيسير علم المعاني، منشورات جامعة القصيم، السعودية.

البريكان: محمود، 1993، مدينة خالية، محمود البريكان، الأقلام، ع 3-4،آذار/ نيسان.

علي: طاهر مصطفى، 2016، صورة (مأساة حلبجة) باسلوبين مختلفين بين بلند الحيدري ومحمود البريكان، د.طاهر مصطفى علي، گۆڤاری زانكۆ بۆ زانستە مرۆڤایەتیەكان، بەرگی٢٠، ژمارە ١.

علي: طاهر مصطفى، 2017، مأساة الجسد الذكوري في شعر بلند الحيدري طاهر مصطفى علي، مجلة الآداب، جامعة بغداد، العدد 122(أيلول).

علي: عبد الستار نور، 1999، محمود منْ حلبجة، عبد الستار نور علي، ريكاي كوردستان،ع 177/نيسان.

العلاق: علي جعفر، 1996، الشعر وضغوط التلقي، مجلة فصول، مج15، العدد3، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.

رسول محمد، 2010، موت الأم، جسدة الحضور العاجز، وطقوسة الغياب الأبدي، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافة العامة –العراق، العدد الثالث، تموز–آب–أيلول.

ابراهيم: شنوار، 2015/3/17 حلبجة، جريدة دنيا الوطن

Khttps://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2015/03/17/360262.html

جاويد: خلدون، 20-3-2006، ذكريات عن حلبجة ألهبت افق خيالي، الحوار المتمدن، العدد 1495 2.

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020

http://www.ahewar.org

جاويد، خلدون، 25م9/2009، وكل حلبجةٍ كالطود تحيا، الحوار المتمدن، العدد
http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=109735&r=02049

الحيدر: ابراهيم، الحوار المتمدن، 2005/5/26 حلبجة... ترحب بكم...!!!!، الحوار المتمدن
http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=7657&r=0

الحيدر: حيدر، 2012، الكورد وكوردستان في الشعر العربي المعاصر
https://www.kurdipedia.org/files/books

الحيدر: عبد العزيز، صور من مدينة
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=205544

المندلاوي: أحمد الحمد،21-2-2014، حلبجة و لوحات الأنين ، الحوار المتمدن، العدد 4372 .
http://www.ahewar.org

علي: عبد الستار، 2019/9/1، هذي حلبجة، عبد الستار نور علي، الحوار المتمدن-العدد: 6109
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=624102

عقيل: هاني،2015/8/2،على طاولة القراءة الذهبية (مدينة الحزن حلبجة والايقاع الحداثوي) دراسة نقدية تحليلية لايقاع النص الحداثوي لقصيدة الشاعر شينوار ابراهيم (مدينة الحزن حلبجة).
http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=478732&r=0

الصائغ: عبد الاله،2005، حلبجة أميرة المدن
http://www.zagros.org/arabic/a-misc/halabja-abdulilah.htm

رمزي: عقراوي، 2018، كوردستان لا لن تموت، رمزي عقراوي، الطبعة الالكتورنية الأولى، دار تجمع المعرفيين الاحرار الألكتروني
https://en.calameo.com/read/0052702982b358f90fb32

شعبان: بريزاد، 27/01/2010 انحني لكم خمسة آلاف مرة
http://new.alnoor.se/article.asp?id=67677

تمر: جوتيار، 2015/8/4، قراءة في مدينة الحزن حلبجة للشاعر الكوردي شينوار ابراهيم، ، الحوار المتمدن
http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=479004&r=0

خالد: خالد يونس،28-6-2007، حلبجة- مدينتي المحترقة
http://www.alnoor.se/article.asp?id=7275

DOI:https://doi.org/10.26750/Vol(7).No(3).paper2 http://journal.uor.edu.krd/index.php/JUR Vol.7. No.3, August.2020